صفحة مجهولة

من حياة حافظ

من أوليائه

فى صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً فى الجامع الأحمدى بطنطا وقد سافرت فى ايام العطلة الى بلدنا القرشية : ثم عدت فى أواخر شعبان من تلك السنة الى طنطا ، فاذا باخوانى واصدقائى يلوذون بفتى غض الاهاب جديد الشباب وقد أسرعوا بتقديمى اليه وتقديمه الىّ باسم الأديب الشاعر « محمد حافظ ابراهيم » ولم تمر الا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلا اليه بجاذب من الأدب الذى كان نهمة نفسى حتى آل ذلك الى غرام بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة وبديهة مطاوعة وسرعة خاطر وحضور نادرة .

وكان دأبنا فى رمضان تلك السنة أن نصلى المغرب والعشاء والتراويح معاً ثم نلبث فى سمر ممتع ومطارحة للشعر ومذاكرة فى نوادر الأدب وما كان يطرف الحضور به مما يقف عليه من جيد القريض الى أن يأتى وقت السحور . ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه الى انبثاق الفجر فنؤديه ثم نخرج بغلس الى خارج المدينة حتى نصل الى قرب بلدة قحافة ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع فيذهب كل واحد منا الى بيته ثم نعود الى مثل ذلك إذا جنّ الليل .

وكان الذين اعتادوا الخروج معنا الى ما نخرج اليه هم :

(١) محمد حافظ ابراهيم (٢) محمد حلمى الجيزى أفندى عمدة الجيزة سابقاً (٣) السيد محمد ابراهيم صلاح التاجر بطنطا الآن (٤) الشيخ محمد ابراهيم البيومى من مدرسى الازهر الآن (٥) كاتب هذه السطور عبد الوهاب النجار .

ظل هذا دأبنا مدة شهر رمضان وفى أواخره بصرنا ببشروش جميل الصورة فى حديقة مدرسة الفرير ، فتقدم واحد منا وطرق بحلقة الباب ليفزعه فكان المنظر جميلا . فعاودنا ذلك العمل ثلاث ليال . ولكن جماعة الفرير ظنوا تعمد ذلك لاقلاق راحتهم ، فلما كانت صبيحة آخر يوم من رمضان خرجنا من المسجد بغلس وأسرعنا الخطا حتى أتينا إلى مدرسة الفرير والظلام لم يقوض خيامه ، وما أن تقدم واحدٌ منا لتحريك حلقة الباب حتى هبّ جماعة من الفلاحين قد أكمنهم جماعة الفرير للقبض

علينا فعلقت حبائلهم بمحمد حافظ ابراهيم شاعر النيل ومحمد حلمى الجيزى أفندى. أما أنا والشيخ محمد ابراهيم البيومى فاسلمنا أرجلنا للريح وطرنا مع البازى عليه سواد ولما أمنّا الطلب وقفنا ننتظر اخوينا الى ان فضحنا النهار ولم يبق للانتظار فائدة فذهبنا بحسرة ما بعدها حسرة — وكان السيد محمد ابراهيم صلاح قد تخلّف عن الذهاب معنا فى هذه المرة .

ولما كان هذا اليوم آخر أيام رمضان ذهبت إلى بلدنا لقضاء العيد هناك وقد اتفقت مع السيد محمد ابراهيم صلاح والشيخ محمد ابراهيم البيومى على أن يكتبا إلىّ بما يتم من أمر حافظ ومحمد افندى حلمى وأن يلحنا لى لحناً أعرفه، وذهبت وأنا على أحرّ من الجمر ـ وفى اليوم الثانى من أيام العيد وافتنى تذكرة بوستة من المرحوم حافظ بك بما نصّ :

وذلك انه لم يرتفع النهار حتى ذاع الخبر وأرسلت التلغرافات لقنصلية فرنسا . وعلم كل من المرحومين نيازى افندى مهندس تنظيم طنطا وهو خال حافظ والشيخ محمود الجيزى شقيق حلمى افندى ، فذهبا إلى جماعة الفرير وكلماهم فى هذا الشأن فرضوا باطلاقهما (وكانوا قد سلموهما إلى الضبطية) بشرط أن يعودا إلى المدرسة ويستسمحاهم ، ففعلا وانتهى الأمر باطلاقهما .

ومما حصل لحافظ فى ذلك العهد أن خاله أغلظ له القول مرة فى شأن من الشؤون وزجره ، فكتب إلى خاله :

ثقلتْ عليك مؤونتى إنى أراها واهيهْ
فافرحْ فانى ذاهبٌ متوجّهٌ فى داهيهْ !

وكان كثيراً ما يشكو الدهرَ ويندب سوء حظه ويتبرم بأحداث الزمن ويتمنى لو يوافيه حمامه — فمن ذلك قوله :

عجبتُ لعُمرى كيف مُدّ فطالا وما أثّرتْ فيه الهمومُ فزالا
وللموتِ ما لى قد أراه مباعداً وجُلُّ مرادى ان أُوسَّد حالا
فللموتُ خيرٌ من حياةٍ أُرَى بها ذليلاً ، وكنتُ السيد المفضالا

ولقد أوردت عليه هذه الأبيات قبيل وفاته فتعجب أن يكون هذا الشعر صادراً منه .

ومن آيات ذكائه أنه كان يسمع الفقيه فى بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو سورة مريم أو سورة طه فيحفظ ما يقول ويؤديه كما سمعه بالرواية التى قرأ بها الفقيه !

وكان إذا وقف على بيت نادر أو شعر بارع يبادر الىّ قبل أن يُسمعه انساناً آخر ويسمعنى ما أعجبه ، وكان لا يُعجبه الا كل مرقص مطرب .

حافظ المحامى

كانت المحاكم الأهلية حديثة الوجود ، وليس للمحاماة قانون مسنون ، ولا توجد شهادات حقوقية فى طائفة المحامين ، ولم يكن نظام الامتحان قد استحدث ، فكل ذى قضية جاء بشخص وقال إنى وكلته قبل منه .

وقد ضجر حافظ من فراغه ، فذهب الى المرحوم الشيخ محمد الشيمى المحامى بطنطا (بك فيما بعد) واشتغل عنده فى مكتبه ، وكان يسافر الى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا ويترافع فى القضايا ويكسبها.

وبخلاف حصل بينه وبين محمد الشيمى بك ترك كتبه وترك له هذين البيتين :

جرابُ حَظِيَ قد أفرغتُه طمعاً ببابِ أستاذنا الشيمى ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوء فقلت له : ممَّا ؟ فقال : من الحسَراتِ واحربا !

فأسف المرحوم الشيمى بك لخروجه وحاول استرضاءه وعودته إلى العمل معه فى مكتبه فلم يقبل .

انتقل بعدذلك حافظ ابراهيم ليشتغل فى مكتب محمد أبى شادى بك بطنطا فمكث معه مدة كان فيها مغتبطاً كل الاغتباط ، وكان أبو شادى بك يرى نفسه قد عثر على كنز ثمين فكانا يتنادران بالأدب ويتطارحان الأشعار الى أن خرج حافظ من مكتبه الى مكتب عبد الكريم فهيم افندي المحامى فمكث فيه مدة من الزمن يشتغل عنده . وكان مكتب عبد الكريم فهيم افندى ومكتب ابراهيم الهلباوى بك متجاورين ومحلهما كان بالوكالة التى جُعلت فيما بعد المعهد الاحمدى ، وكان كثيراً ما ينتقل الى مكتب ابراهيم الهلباوى بك الذى يسرّ بحديثه وأدبه .

﴿ مرثية حافظ ﴾

لاستاذه وصديقه القديم محمد ابى شادى بك

كان المرحوم حافظ ملولاً فكان قليل الكتابة بل نادرها ، وكان لا يأنس إلى تدوين شعره مكتفيا باملائه عن ذاكرته القوية ، ولذلك نجد نماذجَ خطه نادرةً وخاصة شعره . بيد أننا نجد حافظاً يشذّ عن هذه القاعدة فى مرثيته البليغة المؤثرة لأستاذه فى المحاماة وصديقه وزميله فى الأدب المرحوم محمد ابى شادى بك . وإليك نصّها الكامل كما كتبها ، وهى مثال من وفائه الرائع :

عجبتُ أن جعلوا بريا لذكراكا
كأنّنا قد نسينا يوم متعاكا
إذا سلمت يا ابا شادى مطوّحةٌ
ذكرى الهديل فشوقٌ أنا سلونا كا
وراحة النيل والوادى وساكنه
رجعٌ لصوتك موصول يذكراكا
لقد عشقت فينا نميرا طاب مورده
أسمى سجايا الفتى أدنى سجاياكا
فما كأولاك بيتٌ فى كرم
أولى كريم ولا عقبى كعقباكا

فضيلة الوحي المعبود قد ملأت
أنحاء نفسك شغلا عن قضايانا
أبليت في ملأ الحاضر لطى
وكان سرهما أني شئت فتكا
أجهلت ما فصلوه في قضايدهم
من لقد نضروا بالحمد مثواكا
لم يبق لي قيد شبر صاحباي ولم
يسعني القول لا بعدا ولا ذاكا
يا ندمي الدهر والتسبيح حسبنا
هاأنت في الخلد قد جاورت مولاكا
لو لم تكن لك في دنياك نفحة
سوى ركنك لقد جملت دنياكا

* * *

رحل بعد ذلك حافظ ابراهيم الى مصر ودخل المدرسة الحربية وكان دخولها منتهى ما يتمناه . وعقب ذلك رفعت دعوى على خاله محمد نيازى افندي بمحكمة طنطا الاهلية وحُكم عليه بسنتين . فنظم حافظ قصيدة للخديوى المرحوم محمد توفيق باشا يستعطفه بها على خاله ، فوقعت قصيدته من نفس الخديوي موقعاً حسناً فأصدر عفوه عن خاله وعينه مدرساً للامراء أحمد سيف الدين ومحمد ابراهيم وشويكار هانم ، وبقى بعد مفارقتهما عهد الدراسة يستولى على مرتبه الى وفاته .

وأما حافظ فقد تخرج من المدرسة الحربية سنة ١٣٠٩هـ. وتقلبت به الاحوال الى أن صار شاعر النيل غير مدافَع . فرحمه الله رحمة واسعة وعوض مصر والعربية فيه خيراً ؟

عبد الوهاب النجار

حافظ لسان عصره

أصبحتُ أجفل من الشعر وأفرق من الكلام فيه وأستجير منه بالحذر ، وأحسب ذلك لأنى عانيتُ أزم التعبير به زمناً فأخفقتُ ، وعدت أندم على ما أضعت فيه من جهد وعمر ، وأعجب للغرور الذى كان يزين لى الزهو به . ولست أتكلف التواضع ، فان هذا ما أنطوى عليه الآن من احساس ورأى ، وقد يتفق لى أحياناً أن تقع عينى على جزء من ديوانى فأفتحه وأقلب صفحاته واقرأ ابياتاً هنا وأخرى هناك ثم أطوى الكتاب وأرده الى حيث كان مدفوناً وليس بى الا الدهشة من أنى كنت أعدّ هذا كلاماً يستحق النشر والاذاعة . وكنت قديماً أتطاول على الشعراء وأتناول بالنقد واقسو فى ذلك عليهم واعنف ، بل لقد افتتحت — او على الأصح كان مما افتتحت به — سيرتى فى الكتابة بأن نقدت حافظاً رحمه الله فى سلسلة مقالات كنت أعتز بها وأعتدها شيئاً ثميناً فجمعتها ونشرتها فى كتاب بيع من نسخه القليل وتكدس اكثرها عندى فبعته لبقال رومى — لعله أمّى أيضاً — ليلف فى ورقاته ما شاء من جبن وزيتون أو يفعل بها ما هو شر من ذلك . وقلت